

حيوية العربية

بعد أن كانت العربية، إلى حدود القرن السادس عشر اللسان العالمي الأول، تدرجت خلال القرون الماضية إلى المرتبة الثامنة أو ما بعدها، ثم عادت إلى الصعود في أوائل القرن العشرين لتصبح في الإحصائيات العالمية لسنة 2017، ومن جملة ما بين السنة والسبعة آلاف من الألسنة الحية، هي اللسان الرابع في الترتيب بعد الصينية والآنكليزية والإسبانية، بحسب عدد المتكلمين بها، وقبل الكثير من الألسنة التي تعدّها وسائل الإعلام والدعاية قبلها.

وهي من جملة الألسنة الأكثر استعمالاً عند المتكلمين بغيرها، والأكثر حظوة في التعليم اللغوي، بحيث تعدّها الإحصائيات العالمية من أكثر الألسنة المستعملة لساناً ثانياً عند غير المتكلمين بها.

هي من الألسنة الخمسة المستعملة رسمياً في المنظمات التابعة للأمم المتحدة، وهي الوحيدة التي فرضت نفسها بقوّتها الحضارية التاريخية، وبأهميتها الثقافية دون أن تكون من الدول المنتصرة في الحروب الاستعمارية الكبرى بعد 1945.

فراء العربية، تاريخ حضاريّ مثل في تاريخ البشرية مرحلة الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الحديثة، وإلى الآن مازالت الجغرافيا السياسية واللغوية العالمية متشكّلة جزئياً بما خلّفته الحضارة العربية الإسلامية.

وتمثل المنطقة التي تحتلّها العربية منذ القديم، وفي الوقت الحاضر منذ القرن التاسع عشر، من أسخن المناطق في الصراعات العالمية، سواء أكانت سياسية واقتصادية وعسكرية أم كانت حضارية وثقافية دينية. فهي غرضة لكثير من المناورات والتخطيطات الاستراتيجية.

فهي اللسان الأول في إفريقيا، وتتقدّم بنسبة متصاعدة على الألسنة الاستعمارية كإسبانية والبرتغالية. وهي المزاحم الأساسي لانتشار الفرنسية في القارة السمراء إلى حدود 2060 على الأقلّ حسب إحصائيات المنظمة الفرنكوفونية، رغم انعدام كلّ سياسة لغوية عربية في المجال.

أمّا في آسيا، فبعد انتكاسها في الهند شرقاً وأندونيسيا جنوباً والمناطق التركمانية في الوسط، عادت إلى بعض حيويّتها في كلّ هذه المناطق بنسب مختلفة. أمّا في المجال الإيرانيّ والأردنيّ فقد حافظت على أهميتها في مقاومة الاستعمار الحديث كقوة ثقافية حضارية تعتمد الخلفية الدينية وتستعملها لفرض ألسنتها القومية.

وفي العموم، وحتى في العالم العربيّ نفسه، حافظت العربية على صيغتها الأممية المميزة للألسنة العالمية والحضارية الكبرى المازجة بين الشعوب كإسبانية أو الأنكليزية. فليس كلّ المتكلمين بالعربية عرباً، ولا مسلمين. فالعربية باعتبارها لساناً حضارياً ليست قومية ولا دينية كما أشاعت الإيديولوجيات القومية والدينية في المجال السياسي والاجتماعي.

تتمتع العربية، كأغلب الألسنة الكبرى، بثناء لهجيّ، يساعد على بقائها وانتشارها في عالم يموت فيه أكثر من لسان في الشهر وعشرات اللهجات. وهي كالصينية والألمانية وعشرات الألسنة الأخرى، تدور لهجاتها حول دارجة مشتركة،

تستعمل الدارجة المشتركة في صيغ عدّة، منها الصيغة المعيارية الرسمية؛ ويسمّيها الصوفيون بالفصحى، وبنعتها المعروضون بالأدبية. وكلتاها تسمية غير علمية، أي لا يستعملها اللسانيون الممثلون للمرجعية العلمية العالمية، ومنها صيغ غير رسمية تنتشر في كثير من الاستعمالات التلقائية في مجالات عدّة.

من مظاهر الحيوية المخولة لتسميتها بالدارجة شيان: استعمالها المخصوص في المجالات العامة المشتركة كالإدارة والصحافة والتعليم والقضاء وفي الكثير من الاجتماعات الرفيعة، وتواترها المكثف زمانياً في الأمكنة المختلفة، بحيث لا تمرّ ثانية في العالم لا تستعمل فيها هذه الدارجة الحية عند آلاف المستعملين بنأ وتلقياً في المجالات الحيوية الرسمية كالاتصال الشفوي والمكتوب في مختلف الحوامل من إداعات وتلفزات وجراند ومحاضرات وكتب ومرافعات ومعاملات ومنها الشبكات الرقمية. فهي مستعملة أكثر بكثير جدّاً ممّا تروّجه بعض الأوساط لأسباب استراتيجية وإيديولوجية.

إذا وقفنا قليلاً عند المثال الأخير لقيمته العصرية، فإنّ إحصائيات الشركات العالمية النافذة كأوبرا تضعها في المرتبة العاشرة في استعمال ويكيبيديا. وأدرجتها إحصائيات المنظمات العالمية منذ سنة 2010 ضمن الألسنة العشرة الأكثر استعمالاً على الشبكات الرقمية، وقبل الفرنسية. وتؤكد المنظمات العالمية أنّها في السنوات السبعة الأخيرة تقدّمت إلى المرتبة الرابعة في هذا الشأن. وذلك في نفس الوقت الذي تنشر فيه بعض الأوساط السياسية الداخلية والخارجية خلاف الواقع تماماً.

- ومن العجيب أنّ الشركات السياحية العالمية الكبرى تدرجها ضمن الألسنة العشرة الأولى التي يحتاج إليها المتنقّلون، كما تدرجها أوساط البنزنس الفرنسيّة ضمن الخمسة ألسن الراجعة والأكثر ضمانا لمزيد الاعتناء بالسوق العربيّة.
- وفي العموم، تقوم حركة العربيّة على القوّة الكميّة أكثر من قيامها على القوّة الكيفيّة. وهذا ما يفسّر عودتها السريعة إلى ما كانت عليه من أهميّة عالميّة في القرن السابع عشر، إثر تأخّرها النسبيّ كلسان رسميّ في الخلافة العثمانية وتأخّرها البليغ في المعرفة العلميّة والمهارات الأدبيّة والفنيّة، وإثر انتشار الإسبانيّة والبرتغاليّة فالإنكليزية في أصقاع العالم وقيل التحاق الفرنسيّة واكتساح الروسيّة لآسيا الوسطى.
- لذلك تبقى أهمّ التحدّيات التي تواجهها العربيّة على صلة باستعمالها في المعارف والفنون، وفي التصديّ لمخطّطات انتشار الألسنة الاستعماريّة على حسابها في مجالاتها الحيويّة، وفي تجنّب أخطاء الانقسام اللغويّ الذي أصاب بعض الشعوب والقارات في أوروبا وإفريقيا.
-